@Tafsircenter

المقاصد القرآنية عند محمد الغزالي

أنواعها، مضامينها، وأبعادها الحضارية

أ.د. محمد زرمان

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

مقدمة:

يكاد يُجمع الدارسون والباحثون في شؤون الحضارة أن القرآن الكريم هو المصدر الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية، والمنبع الأصلي الذي استقى منه المسلمون منظومتهم القيميّة والمعرفيّة، وقطب الرَّحى الذي دارت حوله كلّ العلوم التي ازدانت بها هذه الحضارة واصطبغت بصبغتها، فجاءت في غاية الفرادة لارتباطها في منطلقاتها وغاياتها بالوحي الإلهي.

لقد واجه المسلمون الأوائلُ العالمَ الذي فتحوه بالقرآن الكريم والسنة الشريفة: «وهذا ما كانوا يملكون، فاتجهوا إلى القرآن والسُّنة يتأملون فيهما، ويستخرجون الحقيقة، ويخاطبون الأمم؛ أمم عريقة في الحضارة، راسخة في الفكر، متمكنة في الجدل»[(١)]، ومنه انبثقت أنوار المعرفة بكلِّ أنواعها: «فقد توالدت من القرآن ألوانٌ من العلوم والمعارف والثقافات. وما من علم إلا وقد نظر أهلُه في القرآن، وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له»[(٢)]، ولا نُبَالغ إذا قلنا: إنّ الحياة الإسلامية كلّها ليست سوى الوجه الآخر للتفسير القرآني، «وتطور العلوم الإسلامية جميعها إنما ينبغي أن يُبْحَث عنه في هذا النّطاق: في

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. النشار، علي سامي. دار المعارف بمصر، القاهرة. ط ٥. ١٩٧١م. ج١. ص٢٩٥.

(٢) مقدمات العلوم والمناهج، محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل. الجندي، أنور. دار الأنصار. القاهرة. ط١. ١٩٧٩م. ص١٣.

النّطاق القرآني نشأت، وفيه نضجت وترعرعت، وفيه تطوّرت، وواجهت علوم الأمم -تؤيّدها أو تنكرها- في ضوئه»[١].

واستجابةً لأمر الله بالسّير في الأرض[٢]، والنظر في ملكوت السموات والأرض، والتأمل في آياته الكونية اقتحم المسلمون ميدان العلوم التجريبية وأبدعوا فيها، ووضعوا الأساس للمنهج التجريبي، فكان لهم في هذا الميدان صولات وجولات؛ لأنهم فقهوا أن هذا الأمر بالسّير في الأرض «سياحة منضبطة هادفة ليست للمتعة الفردية، ولا لقضاء الوقت بعيدًا عن العمل ومتاعبه فقط، بل هي سياحة تَفَكُّر وتَدَبُّر وعبادة لله تعالى، واستكشاف لتجليات قدرته وحكمته وعزته... وفيها تحريض على البحث العلمي القائم على الملاحظة التي تؤدي إلى استكشاف قوانين الخَلْق»[٣].

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. النشار، علي سامي. ج١. ص٢٩٥-٢٩٦.

(٢) ورد الأمر بالسّير في الأرض في القرآن الكريم في المواضع التالية: (آل عمران، ١٣٧)، (الأنعام، ١١)، (يوسف، ١٠٩)، (النحل، ٣٦)، (الحج، ٤٦)، (النمل، ٦٩)، (العنكبوت، ٢٠)، (الروم، ٩)، (الروم، ٤٢)، (فاطر، ٤٤)، (غافر، ٢١)، (غافر، ٨٢)، (محمد، ١٠). ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. عبد الباقي، محمد فؤاد. بيروت. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ص٣٧٤.

(٣) مع القرآن دراسات ونظرات. جرار، مأمون فريز. عمَّان: دار المأمون للنشر والتوزيع. ط١. ٢٠١٤م. ص٦١-٧٠.

لذلك كان هذا التخلف المريع الذي أصاب المسلمين محلّ تساؤل مريرٍ من روّاد النهضة في العصر الحديث، والذين أدركوا أن الدّاء الأصلي والخلل الكبير يكمن في علاقتهم بكتاب ربهم التي انحرفت عن مسارها، وأصابها كثير من التشويش والغبش، وكان محمد الغزالي واحدًا من هؤلاء المفكرين الذين عكفوا على واقع المسلمين المتردّي يدرسونه بعمق، وينظرون في طبيعة العلاقة التي تربطهم بمصدر الهداية الأول، وخرج بنتيجة مفادها أن: «كثيرًا من المسلمين جعلوا القرآن على هامش حياتهم، وتركوا حفظه ودرسه للمنقطعين والمصابين، وهم بهذا المسلك يخونون الله ورسوله، ويخونون أنفسهم»[(١)]، في حين أن القرآن الكريم لا يجب أن يعتزل الحياة مطلقًا؛ لأنه إنما نزل ليُصَوِّب أو يُخطِّئَ أفكار الناس وسلوكهم وأعمالهم، وليمحو أحوالهم أو يثبتها: «إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدّهر، ولكنها الحياة القائمة على الحق، الدارجة على الصراط المستقيم»[(٢)]. وهذا ما حدا به إلى البحث في مقاصد القرآن، وتجليتها للمسلمين لتكون دليلهم في عالم نشيط وسريع ومتطور تكاد عجلته أن تدهسهم وتذرهم أثرًا بعد عَيْن.

(١) نظرات في القرآن. الغزالي، محمد. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط٦. يوليو ٢٠٠٥م. ص٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٤.

وقد انتهى الغزالي -بعد طول تأمّل وتدبّر في كتاب الله- إلى أن معانيه وآياته تدور في مجملها حول خمسة محاور أساسية تكاد تستوعب معطيات الوحي بكلّ شموليته واتساعه. والمتأمل في هذه المقاصد التي رأى الغزالي أنها تتضمن أمهات القضايا الكبرى التي نزل النصّ القرآني لبيانها، يجد أنها تحمل في طيَّاتها أبعادًا حضارية كبرى، كان الغزالي يرى أنها كفيلة بتغيير وضع الأمة إلى الأفضل إذا ما تم تفعيلها لتحقيق الاستقطاب الموحِّد لفعاليات الأمة الإسلامية وتوجهاتها ضمن إطار قرآني جامع، وذلك من خلال إعادة القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر، ليستعيد العقل المسلم عافيته ويستردّ القرآن دوره في إنارته وعطائه، باعتباره وحيًا كاملًا متجدد العطاء، استجاب بقوة لما كان من حالات تاريخية سابقة ولا يزال مستمرًّا باتجاه المستقبل قادرًا على العطاء المستمر، ومن بين أهم هذه الأبعاد: البُعد الإيماني، والبعد العملي، والبعد السنني، والبعد التربوي، والبعد العمراني الذي يحقق للأمة الشهود الحضاري.

مع التأكيد على أن هذا البحث يهتم بالدرجة الأولى بالبحث في المقاصد القرآنية الكلية عند الغزالي؛ لذلك فإننا لن نتطرق فيه إلى مقاصد السور والآيات التي حظيت هي أيضًا بعنايته لكنها لا تندرج ضمن حدود الدراسة الحالية.

وقد انتظم البحث في مطلبين:

المطلب الأول: المقاصد القرآنية عند الغزالي؛ قراءة في الأنواع والمضامين.

المطلب الثاني: الأبعاد الحضارية للمقاصد القرآنية عند الغزالي.

تعقبهما خاتمة فيها أهم نتائج البحث.

أولًا: المقاصد القرآنية عند الغزالي؛ قراءة في الأنواع والمضامين:

يؤكد الغزالي أن القرآن الكريم: «مع استفاضة معانيه، وكثرة سوره، يمكن القول بأنه يدور على خمسة محاور»[(١)]. ومن خلال تصفحنا لكتاب (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) واستقرائنا لمعظم الأفكار الواردة فيه، لاحظنا أن الغزالي يتوقّف طويلًا أمام هذه المقاصد محللًا أبعادها وغاياتها العميقة، وكأنَّ عناوين هذه المقاصد ليست سوى مداخل بعيدة الغور لأسرار القرآن. كما لاحظنا أن كلّ هذه المقاصد يربطها الغزالي ربطًا جليًّا بالحضارة والعمران البشري؛ إِذْ إِنّ هناك علاقة جدلية بين حالة المسلمين وتبليغ رسالته الخاتمة إلى خلقه: «ولما كان المسلمون شديدي التخلف في المجال الحضاري والدولي، فإنّ أحوالهم المزرية كان لا بد أن توقف سير الرسالة، وأن تلقي عليها ظلالًا سودًا»[(٢)]، وكأنّ المقصد العام لها هو إيجاد أنجع وسيلة لتفعيل تعاليم القرآن الكريم في نفس المسلم لتتحول إلى طاقة ترفع توتره الإيماني وتدفعه إلى استئناف مسيرته الحضارية: «هذا الكتاب يُعَرِّف الناس بربهم، على أساس إثارة

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الشروق. ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م. ص١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٢.

العقل، وتعميق النظر، ثم يحوّل المعرفة إلى مهابة لله، ويقظة في الضمير، ووجل من التقصير، واستعداد للحساب»[١].

ومن ثمَّ فإنَّ أبرز ما يلفت أنظارنا أنّ الغزالي يتبع منهج الحركة من الواقع إلى النصّ، ويهدف إلى إصلاح الدنيا بالدين[٢]، فيشخص الداء من الواقع، ويصف الدواء من القرآن.

وفيما يلي محاولة لتحليل مضامين هذه المقاصد:

١-المقصد الأول:

وضع الغزالي على رأس المقاصد محور (الله الواحد) الذي يقرر من خلاله أن التوحيد هو قانون الوجود ونظام الحياة، وهو أمر يلتقي عنده جميع من عالج هذا الموضوع ويتفقون عليه؛ نظرًا لمركزيته في المنظومة الإسلامية كونه نقطة الجذب الرئيسة في الدّين كلّه. وفي شرحه لهذا المقصد بيَّن الغزالي أن الكون كله مفتقر لهذا الإله الواحد القادر[٣]، وأن أساس القرآن يقوم على تقرير

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الشروق. ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م. ص ١٩.

(٢) ينظر: منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن، (أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، ٢٠١٠م)، ملال، يونس، ص٤١٦.

(٣) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٢٢.

التوحيد الخالص من كلّ شوائب الكفر والشرك، وهو ما دعاه إلى تسفيه عقيدة التثليث والصَّلْب وبيان ما فيها من آثار وثنية[١]، وبيان تهافت دعاوى الإلحاد التي تنكر وجود الإله وهي ترى عظيم صنعته في جميع ما يحيط به من مخلوقات ومظاهر كونية، وما يحتويه جسم الإنسان من معجزات خلقية ظاهرة وباطنة، ويعدُّه (مرضًا لا فكرًا)، كما ناقش باستفاضة عقيدة الجبر التي انتشرت بين المسلمين بسبب القصور الفاضح في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والتي رسَّخت في الأذهان: «أن الإنسان مسلوب المشيئة، وأنه مقهور بكتاب سابق، وأن سعيه باطلٌ؛ لأنه لا يغيِّر شيئا مما خُطَّ عليه في الأزل»[٢]، وأكّد أنها تشويه متعمَّد للتوحيد: «بل هي تطويح بالوحي كلّه، وتزييف للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة، وتكذيب لله والمرسلين قاطبة»[٣]، وشدَّد على مساحة الحرية التي يملكها الإنسان ليقرّر مصيره الأخروي، وأن الله ليس بظلام للعبيد حتى يدخلهم النار بغير ما كسبت أيديهم: «إن الله لا يُكْرِهُ أحدًا على طريق الشرّ ثم يُدْخِله النار، ومن تصوَّر هذا فهو جاهل بالله، طائش العقل... وأغلب المسلمين تساورهم هذه الظنون المجنونة؛ لأنهم فهموا أن

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٢٥ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣.

المثوبة والعقوبة حظوظ عمياء، أو مصادفات ليس لها ضوابط»[١]، وإن انتشار هذه الضلالات بين المسلمين قد تسبّب في هزائم نفسية واجتماعية لحقت بالأمة وأوردتها المهالك[٢].

وخلوص عقيدة المسلم من كلّ أنواع الشرك والكفر والجبر هو الذي يحقق له التوحيد العقدي، ثم يأتي التوحيد السلوكي كثمرة من ثمرات الأول، وليس من الضروري في رأيه: «أن يعتمد الشرك أو الكفر على صورة تُنْحَت، أو رئيس يتفرعن... يكفي أن يكون المرء فارغ القلب من الله، فارغ الرأس من الله، مليئًا بشهواته وحدها، يذكر دنياه ويجحد آخرته، ينطلق في الدنيا انطلاق الوحش في الغَاب، ما يسمع إلا نداء غرائزه وحسب»[٣].

والغزالي يرى أن اللهَ يصلح البواطن أولًا بنور التوحيد، فإذا استنارت صلحت الظواهر واستقامت، ودور الشريعة يأتي بعد رسوخ العقيدة: «لا قيام للشريعة إلا على مهادٍ راسخٍ من الإيمان بالله الواحد»[٤]، والتوحيد السلوكي يخضع لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[فاطر: ٢]، والتي تبني صرح التوحيد في نفس المؤمن، فلا

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد، ص٤٠ - ٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٨.

يرى في الحياة شركاء يصنعون مستقبله بعيدًا عن مراد الله: «التوحيد العملي يجعل ثقة المرء في ربه؛ فينفض يديه من غيره وهو هادئ مستريح، والناس تذلهم الحاجة فيضرعون لمن يظنون قضاءها عنده، ولو صدق اعتقادهم لكان لهم سلوك آخر»[(١)] . وفي خاتمة المقصد يؤكد الغزالي أن التوحيد في نهاية أمره نظام عام يشمل الفرد والمجتمع والدولة، وفلسفة حياة وروح أمة وليست شعارًا أجوف.

ولئن اتفق الغزالي مع كثيرٍ من علماء المسلمين في كون التوحيد أوّل وأعلى مقصد في القرآن الكريم إلا أنهم اختلفوا في معالجة جوانبه المختلفة. وإن مقارنة سريعة بين أسلوب الغزالي مثلًا في بسط حقائق التوحيد وأسلوب محمد الطاهر ابن عاشور تبيّن لنا الفرق الشاسع بين الرجلين؛ فالأول يتحدث عن التوحيد وما يخالفه من أنواع التثليث والوثنية والشرك والإلحاد بأسلوب ينبض بالحياة، ويستحضر الأحداث من الواقع المعاش، ويضرب الأمثلة مما نراه في حياتنا اليومية من مظاهر الانحرافات في الاعتقاد مطعَّمة بالأسئلة الاستنكارية، وأساليب التعجّب التي تكشف عن القصور الفكري والروحي لدى المنكرين للتوحيد، وعن الوضع المزري الذي آل إليه المسلمون عندما غابت عنهم معانيه الحقيقية ودلالاته البعيدة، وعن حالة البشرية البائسة وهي تتخبط في

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد، ص٤٦

ظلمات المناهج الوضعية القاصرة وتشقى بها، بينما يتناوله ابن عاشور في إطار من الدراسة العلمية الأكاديمية التي تقرر الحقائق المجردة، وتصف أساليب القرآن في بسط عقيدة التوحيد بأسلوب علمي صارم[(١)].

٢- المقصد الثاني:

خصَّص الغزالي هذا المقصد للحديث عن الكون الدالّ على خالقه، بنسيجه البديع، ونظامه الدقيق، وحركته المنضبطة، وآياته المبثوثة في الأنفس والآفاق. وهو -عنده- المسرح الأول لفكر المسلم، والينبوع الأول لإيمانه[(٢)]، وغفلة الإنسان عن تدبر عظمة الخالق في الكون يحجبه عن الله ويجعله عاجزًا عن أداء مهمة الاستخلاف، وعن التجاوب مع وصايا القرآن، وهو باب إلى الجهل والضلال. وفي تأكيده على ضرورة النظر في الكون، يذهب الغزالي إلى أن الإسلام يفرض على المسلمين أن يبنوا المعرفة وينتجوها من النظر العميق في هذا الكون والبحث المستمر فيه، فليس مستساغًا أن يعيش أتباعُ القرآن محجوبين عن أسرار الكون ومظاهر عظمته، عاجزين عن تسخير ما أودع فيه الله من مرافق ومنافع: «بعد أن فقد الإيمان مصادره الكونية وتوجيهاته

(١) راجع: تفسير التحرير والتنوير. ابن عاشور، محمد الطاهر. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٤م. ج١. ص١٨٢ وما بعدها.

(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٥١.

القرآنية تحول إلى فكر غامض، وغيبيات مبهمة، واستدلالات فلسفية ظنيّة ميّتة»[١].

ثم يوجّه أصابع الاتهام إلى الروحانية الكاذبة، والتديّن الفاسد المغشوش الذي أبعد المسلمين عن استكشاف خبايا الكون وتسخيرها، ومن ثمَّ بناء الحضارة، وإعمار الأرض؛ لأن صاحبه يتوهّم أن طلب الآخرة يعني كراهية الحياة، وأنّ الزهد في العاجلة يعني الجهل بها والعيش على هامشها، وهذا التصوّر المنحرف هو الذي: «ألحق بالمسلمين هزائم رهيبة في معاشهم ومعادهم على سواء»[٢]، وجعلهم ضعفاء غرباء في العالم بينما يدعوهم القرآن الكريم إلى الانفتاح على الكون والتمكّن مما فيه من القوى: «إنّ دراسة الكون نهج قرآني واضح لبناء الإيمان أولًا، ولدعمه وحراسته ثانيًا، ولمنافع البشر ومتاعهم ثالثًا، ومع ذلك فإنّ أجيالًا كثيفة غلَّقت مشاعرها دون هذه الدراسة»[٣].

لذلك هاجم الصوفية وعدَّها ضربًا من الشّلل في المواهب والتشويه للخصائص البشرية، وذلك بما أَدْخَلَتْ في الدّين من أهواء وظنون وأوهام

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٠.

تختزل الدّين في العواطف والروحانيات، وتجورُ على الجانب المادي والعملي في الحياة، وقد انتهت في عهودها الأخيرة إلى صورة من الإرجاء والجبرية، والانسحاب من المعركة الاجتماعية. وأكد في قوة أن: «كلّ روحانية تُثنِي الجماهير عن السعي في مناكب الأرض لا يمكن إقرارها، بل يجب مطاردتها في ساحات العلم والتربية»[(١)]؛ لأن العزلة والهروب من الحياة التي تدعو إليها ليست في حقيقتها سوى فرار من الواجب، ونكوص عن أدائه، واستقالة من وظيفة المسلم الأساسية في إعمار الأرض وإحقاق الحقّ ونشر الخير، وفيه ترك للضلال لينفرد بزمام الحياة وينشر الفساد.

ويصل في خاتمة هذا المقصد إلى أن السبيل الوحيد للمسلمين للوصول إلى الشهود الحضاري هو معرفة خالق الكون حق المعرفة، والإبداع في معرفة الكون المخلوق؛ ليجمعوا طرفي القوة الروحية والمادية في كفة واحدة، لأن الدين -في نهاية المطاف- ليس سوى الدنيا نفسها محكومة ببواعث الإيمان وأهدافه[(٢)].

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

٣- المقصد الثالث:

خصّص الغزالي المقصد الثالث للقصص القرآني باعتباره تأريخًا حقيقيًّا للمسيرة البشرية يستخلص منه المسلمون سنن الله الكونية والاجتماعية ليجعلوا حركتهم الحضارية موافقة لها، فهو: «قطع من الحياة الماضية، استرجعها الوحي الأعلى للتعليم والاعتبار»[١]، وهو أيضًا: «أداة تربية، ومصدر توجيه ووعظ يدعم الفرد والجماعة»[٢]. وباستقراء هذا القصص تبيَّن للغزالي أن هناك تشابهًا صارخًا بين حالة البشرية الآن وبين حالة الأمم البائدة: «وظاهر أن رذائل التّرف والبطر والجحود والأَثَرَة تسود العالم الأول، وأنّ رذائل الفرعنة والمسكنة والبلادة الفكرية والنفسية تسودُ العالم الثالث... مع ذهول عن الله يلفّ الجميع، وإخلاد إلى الأرض وعكوف على ملذّاتها»[٣]؛ مما يجعل القصص القرآني صورة عاكسة لطبيعة الإنسان على مرّ العصور، ويجعل التأسّي به مستمرًّا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنه مجلٍّ لعقائد القرآن وآدابه وما شرع من عبادات وسياسات قبل أن يكون تأريخًا للأشخاص والأحداث[٤].

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٠.

وتأسيسًا على ذلك، يذهب الغزالي إلى أن دراسة التاريخ: «فريضة دينية، وهي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية، بل إنني -بعد التأمّل في تاريخ المسلمين القريب والبعيد- أشعر أنها ضرورة بقاء، وسياج لحياتنا ورسالتنا، إذا كنَّا حراصًا على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا»[(١)]؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- أخبرنا أنّ السير في الأرض، والاطلاع على أخبار الماضين، ومدارسة أحوالهم، وتعقُّب مصائرهم يولِّد لدى المسلم عقلًا ممحّصًا يُكسبه بُعد النظر، ويُزوده بتجربة إنسانية خصبة أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

وبعد تأمّل طويل وعميق في أحداث التاريخ الإسلامي ورصد مواطن السقوط والنكوص فيه، انتهى إلى أن: «دراسة التاريخ ركنٌ مهمٌّ في تكوين العقل الإنساني واستبقاء الرسالات الكبيرة»[(٢)]، وأنّ الأمة مطالبَة بأن تُولي هذا المشروع أهمية خاصة؛ لأن جميع الأخطاء التي شابت تاريخها الطويل قد انحدرت إليها وهي اليوم تدفع ثمنها، ولا فكاك لها منها إلا بمجانبة أسبابها، وإعادة تشكيل عقلها: «إنّ دراسة التاريخ ليست نافلة يتطوع بأدائها من يشاء،

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٢.

إنها ضرورة دينية واجتماعية تقوم بها الأمم الحيّة لحساب الأرباح والخسائر في مسيرتها»[١]، وقد دلَّت القرائن أن: «الأمة التي تفرِّط في استيعاب ماضيها ستعجز حتمًا عن مواجهة حاضرها وبناء مستقبلها»[٢].

وكان الهدف الكبير من وراء اعتماد هذا المقصد، أنه: «لا بد من فقه التاريخ وفلسفته، ولا بد من محاكمة نشاطه البشري إلى النصوصِ السماويةِ التي سار باسمها»[٣]؛ حتى تتبيَّن الأمةُ موضع أقدامها، وتصحِّح أخطاءها، ولا تكرّر سقطاتها، وتنطلق في دورتها الحضارية الجديدة من قاعدة متينة من المعرفة الدينية والدنيوية المستبصرة. ومن ثمَّ فإنّ النتيجة النهائية التي يريد الغزالي أن يصل إليها هي أنّ بناء الحضارة والعمران البشري مرهون إلى حدٍّ بعيد بالوعي السنني الكامن في التاريخ.

ويؤيده في ذلك محمد الطاهر بن عاشور الذي ربط بين القصص القرآني وبين ما يحتويه من توجيهات سديدة في مجال بناء الحضارة وإقامة العمران، حيث أشار إلى أن من أكبر أهداف هذا القصص: «أن ينشئ في المسلمين همَّةً إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم؛ ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٢١.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٩.

العرب، إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضًا، فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صُرَيْمَة، ومنتهى أمل العاميّ أن يرعى غُنَيْمَة»[١].

٤- المقصد الرابـع:

المقصد الرابع هو البعث والجزاء، وهما من الغيب الذي يتعيّن الإيمان به وتمثّله في الفكر والسلوك لقيام الأعمال الصالحة عليه. ويفسّر الغزالي تكرار ذكره في القرآن الكريم بأنه ورد للتأكيد على وقوعه، وعلى أنّ الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء واختبار وممرّ لما بعده، وليست دار قرار. ومن ثمرات الإيمان بالبعث والجزاء -عنده- أنَّه يُعين الصالحين على مشقّات التسامي وأعباء تزكية النفس[٢]، والارتفاع بها عن الرذائل، وتجنيبها مغبّة الخوض في اقتناص الشهوات والعبّ من الملذات بلا رقيب ولا حسيب كما تفعل الغالبية العظمى من البشر؛ لذلك فهو يعتقد أنّ بناء الآخرة يتطلب أخلاقًا حميدة، وشمائل رفيعة تستمد قوتها من صلاح القلب وإخلاصه في التوجّه إلى الله، بحيث يستوي ظاهره وباطنه ويكون عمله ترجمة حيّة لإيمانه. وفي هذا السياق ينتقد الغزالي ما أصاب المسلمين من فصام بين معتقداتهم وسلوكهم فأصبحوا يعيشون التناقض

(١) التحرير والتنوير. ابن عاشور، محمد الطاهر. ج١. ص٣٨.

(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٢٨.

العجيب في حياتهم، ويفصلون بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة[١]، فضاع منهم الصواب في كلتا الحالتين.

ومن ثمرات الإيمان بالبعث والجزاء -أيضًا- اطمئنان قلوب المؤمنين إلى العدل الإلهي المحض الذي يفتقدونه في الدنيا، وتعلّقهم باليوم الآخر الذي ينال فيه كلّ إنسان ما كسب؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. وهذا الإيمان من العوامل التي تعصمهم من اليأس والقنوط، وتثبتهم على طريق الحقّ مهما كانت التضحيات، ومهما بالغ الباطل في الأذى والإجرام: «إنّ الحياة الدنيا ميدان اختبار، وليست موعدًا لإعلان النتائج وإقرار العدل، وفي ذلك الامتحان المعقّد الثقيل قد يُقتَل أنبياء ويُصاب شهداء، وتَنتشر شائعات على أنها حقائق، وتُدرس جهالات على أنها علم، ولا بد من يوم تعود فيه الاستقامة لهذه الموازين المختلة، وتصحُّ فيه الأوضاع السقيمة، لا بد من يوم القيامة»[٢].

ثم ينبّه الغزالي إلى أن البعث والجزاء ليسا عائقين أمام بناء الحضارة وتحقيق العمران البشري كما يظنّ الجاهلون الذين يربطون الخوف من الآخرة والرجاء فيها بالانسحاب من الحياة، والعزلة عن الناس، والزهد في متاع الدنيا، والامتناع عن استخراج ثرواتها والتمتّع بها، بل هي وازع أخلاقي داخلي يهذّب الغرائز، وينشر الخير ويكفُّ النفس عن أطماعها، ويمسكها عن الشرّ والطغيان والإفساد

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٦.

في الأرض: «والتكرار المتعمّد لذكر القيامة ليس تهديدًا للحضارات أو وقفًا للعمران البشري كما فهم القاصرون، وإنما هو لكسرِ الغرور وقمع التطلعات الطائشة»[١].

ويؤكّد ذلك بتذكير المسلمين بأنّ الإسلام يعدّ الدنيا مزرعةً للآخرة، فهنا تزرع وهناك تجني ثمرة ما زرعت، وأنّ الله لم يُوجِد البشرية لتعيش برهة من الزمن ثم تفنى، بل خلقها لتخلد: «إنه أوجدهم ليخلدوا، والموت الذي يعترض ميادين الحياة على ظهر الأرض هو رقدة مؤقتة أو نقطة فاصلة بين مرحلتين من الوجود، كانت الأولى للغرس والأخرى للحصاد»[٢]، وعندما يعي المسلم أن استحقاقه للخلود في الدار الآخرة في نعيم مقيم يتوجب عليه أن يشقى في هذه الدنيا لغرس الخير والصالحات وإعمار الأرض، يجعل حياته عامرة بالسعي المثمر، مفعمة بالإيجابية التي تبحث عن كلّ ما يمكن أن يجعل منها ذاتًا نافعة، عاملة، مؤثّرة، صانعة للتاريخ، بانية للحضارة.

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٥.

٥- المقصد الخامس:

اختار الغزالي للمقصد الخامس عنوان التربية والتشريع، لكنه ركّز فيه بشكلٍ أساسٍ على التربية، وتطرّق فيه إلى جملة من الأخلاق الإسلامية التي تبني شخصية المسلم وتؤهّله للاستخلاف، وتجعل دوره في تغيير العالم وإعمار الأرض وبناء الحضارة دورًا محوريًّا: «إنّ تعمير الأرض يحتاج إلى مَلَكَات نضيرة، وذكاء حادّ ونشاط دؤوب، وعلوم تستكشف القوى والأسرار المخبوءة، وأيدٍ مقتدرة تثير الأرض، وتحسن ارتفاقها لمصالحها الخاصّة، كما تحسن تطويعها لنصرة عقائدها ومبادئها»[(١)].

وجعل القاعدة التي انتقى على أساسها هذه الفضائل التي عدَّها المرتكز الأول للتربية الإسلامية التخلّق بما يحب الله والابتعاد عما يكرهه سبحانه من خلال ما ورد في القرآن الكريم، حيث أكّد أنّ التربية الإسلامية يجب أن تُبْنَى على احترام الحقوق والواجبات، ومحبة ما أحب الله وكُرْه ما كَرِه الله: «وسنلاحظ عند السّرد أن ما يحب الله وما لا يحب ينصبّ على أمور تتّسم بالعموم، وأن الإنسان عندما يستصحبها يحقّق زكاة نفسه، ورفعة جنسه في آفاق الحياة كلها، فليس الأمر عبادة داخل مسجد، بل عبادة في كلّ مكان»[(٢)]،

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦٠.

وتحقيق التربية السليمة مقصد في غاية الأهمية: «فعندما تغيب منابع التربية القويمة تسيطر غرائز السوء على النشاط كلّه»[(١)].

ثم سرد الغزالي الصفات التي يتعيّن على المسلمين اكتسابها، والرذائل التي يتعيّن عليهم اجتنابها وفقًا لما ورد في القرآن الكريم، ومنها: النهي عن الظلم والعدوان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠]، التحلي بالإحسان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥]، المبادرة إلى التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، التزام التقوى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٤]، التواضع وتجنّب الكِبْر والخُيلاء والتفاخر الأجوف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: ٣٦]، حفظ اللسان عن السوء: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[النساء: ١٤٨]، حفظ الأمانات والعهود وتجنب الخيانة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[النساء: ١٠٧]، حسن التوكل على الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، الاقتصاد وعدم الإسراف: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأنعام: ١٤١]، تجنب الغرور وعبادة الذات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، التزام العدل والإنصاف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، التزام الجماعة والجهاد في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص١٦٣.

ومع كلّ فضيلة يحبها اللهُ يسهب في شرح آثارها في تربية الفرد ورفعة شأن الأمة، وعند ذكر كلّ رذيلة لا يحبها الله يبيّن كيف تعمل على ارتكاسِهِ في حمأة الشهوات والشرور وجرِّ أمَّته إلى المهانة والسقوط.

ويبدو أنّ تركيز الغزالي في هذا المقصد على التربية لاعتقاده أنّ التشريع قد أخذ حظّه من الاهتمام وزيادة، وأنّ الانفصال الذي حصل بين العقيدة والسلوك في حياة المسلمين يستدعي إعادة الاعتبار للقيم الأخلاقية والروحية وربطها ربطًا محكمًا بالسلوك العملي والحكم الشرعي حتى تؤتي أُكُلها. فهو يرى أن هناك اختلالًا منهجيًّا في التعامل مع النصّ القرآني وكأنه نصّ قانوني، على الرغم من أنّ القانون نفسه إذا خلت ضمائر الناس من التربية ومن القيم الروحية يتحول إلى أشكال ورسوم خالية من المعاني؛ لذلك وجّهَ عنايته إلى التربية أكثر من الأحكام الشرعية لإحداث التوازن المفقود.

هذه هي المقاصد الخمسة التي بسطها الغزالي في كتابه (المحاور الخمسة للقرآن الكريم)، ورأى أنّ كتاب الله يدور حولها. وهي في مجمل طرحها مُفعَمَة بالحياة، نابضة بمشاعر الشفقة على الأمة، والتحسّر على ما أصابها من بؤس وما لحق بها من الهزائم والانكسارات، سواء في المجالات الثقافية، أم الأخلاقية، أم الاجتماعية، أم السياسية، شديدة الالتصاق بالواقع، تصوّر الأحداث العالمية التي أسهمت من قريب أو من بعيد في انتكاسة المسلمين وانحدارهم، وتصف المؤامرات والمكائد وغفلة العالم الإسلامي عنها، وهدفه الأول والأخير من

عرضها وشرحها، هو وضع اليد على أمراض الأمة وإيجاد العلاج لها من كتاب ربِّها؛ علَّها تتعافى من ضعفها وتتجاوز أزمتها بأقلّ الخسائر.

وقد غلب عليه هذا التفكير المقاصدي في معالجته لجميع القضايا الحسّاسة التي تهمّ الأمة في حاضرها ومستقبلها، حتى إنه اقترح تعديل مقاصد الشريعة الخمسة التي اتفق عليها الأصوليون وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وإضافة مقصد الحرية والعدالة؛ لما له من أثر في استقرار المجتمع وضمان حقوقه الأساسية، داعيًا إلى الاعتبار من دروس التاريخ التي برهنت لنا أنّ غياب الحرية والعدالة قد أضرَّ بالأمة ضررًا شديدًا: «لا بدَّ من زيادات على الأصول الخمسة...، ما المانع أن أستفيد من تجارب أربعة عشر قرنًا في الأمة الإسلامية...، لقد وجدت أنَّ القرون أدت إلى نتائج مُرَّة لفساد الحكم؛ إذن يمكنني أن أضيف إلى الأصول الخمسة (الحرية والعدالة)، وخصوصًا أن عندي القرآن الذي يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، فكأنَّ العدالةَ هدفٌ للنبوّات كلها. قد تكون الأصول الخمسة ضوابط للقضايا الفرعية عندنا، لكن لكي نضبط نظام الدولة لا بد من ضمان للحريات»[(١)].

(١) نحو تفعيل مقاصد الشريعة. عطية، جمال الدين. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. دمشق: دار الفكر. ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص٩٨.

وقد وافقه في ذلك يوسف القرضاوي الذي ذهب مذهبه في قصور كليات الشريعة الخمسة عن الوفاء بمتطلبات الأمة، مؤكدًا أنها في مجملها موجهة إلى مصالح الفرد ومتجاهلة لمصالح المجتمع، وهي الثغرة التي يتعيّن على علماء المسلمين سدَّها في هذا العصر: «إنه قد يفهم من كلام الأصوليين حول المقاصد والمصالح أن انتباههم موجَّهٌ بصورة أكبر إلى الإنسان الفرد، ولم يلتفت بقدر كافٍ إلى المجتمع والأمة... ومهما يكن لهم من عذر، فلا بد أن نؤكد أنّ شريعة الإسلام تهتم بالمجتمع كما تهتم بالفرد... وتقيم اعتبارًا أي اعتبار للقيم الاجتماعية العليا، وتعتبرها من مقاصدها الأساسية... ومنها: العدل أو القسط، الإخاء، التكافل، الحرية، الكرامة»[(١)].

(١) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. القرضاوي، يوسف. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٠م، ص٧٤.

ثانيًا: الأبعاد الحضارية للمقاصد القرآنية عند الغزالي:

يعتقد الغزالي أنّ الأساليب والمناهج والطرائق التي تعاملت مع القرآن عبر العصور شكّلت حواجز حقيقية تجاوزت روح القرآن الحيّة المتوثبة، وعكفت على بعض القشور والمظاهر، ولم تستطع أن تلامس المقاصد الكبرى للقرآن لسببٍ أو لآخر؛ لذلك رأى أن دعوته إلى الكشف عن مقاصد القرآن من خلال التدبّر العميق لآياته يتيح للمتدبرين التحقّق من هدايات القرآن العظيمة بكلّ امتداداتها، ويظهر -من ثَمَّ- أثرها الطيب في حياة المسلمين الفرديّة والاجتماعية، وعلى كافة المستويات: العقديّة والتربويّة والعمليّة والسننيّة والرساليّة.

وهو يذهب إلى أن كشف هذه المقاصد وإدراكها له أبعاد وامتدادات في حياة الناس، وهو الهدف الأساس من محاولة كشف المقاصد بجعلها منطلقًا لتفعيل الإرادة في الأمّة، وزرع الإيجابية في نفوس أفرادها، وتحويل القرآن إلى سلوك واقعي؛ فليست الغاية كشف المقاصد في حدّ ذاتها، وإنما الانتقال من هذه المرحلة إلى مرحلة الاستهداء والتفعيل، وتحويلها إلى برامج ومشاريع حضارية تخلّص الأمة من حالة الاستلاب والمغلوبية، وتنقلها إلى حالة الشهود الحضاري.

فمقصد التوحيد مثلًا إذا لم يخرج من دائرة التنظير ولم يتحوّل إلى طاقة إيمانية لبناء الحضارة وصنع العمران البشري، فلا معنى للحديث عنه والإسهاب في بيانه. ومقصد القصص القرآني أيضًا إذا لم نسقطه على واقع الأمة لنكشف به مواطن الخلل في منظومتها الفكرية وتركيبتها الاجتماعية في ضوء هذه الثروة السننيّة الزاخرة التي تبيّن قيام الحضارات وسقوطها فإن معرفتها وعدم معرفتها سيان.

ومن ثمَّ يؤكد الغزالي ضرورة الانتقال من مرحلة الإدراك إلى مرحلة التفعيل والتسخير، وسنحاول فيما يلي أن نتوقف عند أهم الأبعاد التي نراها وثيقة الصلة بهذه المقاصد:

١ - البعد الإيماني:

خصص الغزالي المحور الأول في كتابه (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) للتوحيد الذي يأتي على رأس المقاصد كلها، والذي يهدف إلى تكوين الإنسان المسلم المتشبّع بقيم العقيدة الإسلامية. ومن ثمَّ فإنّ تحويل هذه القيم من إطارها النظري إلى سلوك واقعي يومي يجعل المسلم إنسانًا راقيًا من الناحيتين: الروحية والخلقية، ويتحقق فيه الصلاح بالمفهوم القرآني: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة: ٢٥]، فهذا المقصد تتجلى أبعاده العملية وامتداداته الفعلية

في هذه الحياة الإيمانية العملية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

والغزالي في إلحاحه على ضرورة أن يكون البُعد المتولّد عن مقصد التوحيد إيمانًا حيًّا يؤثر في الواقع ويصنعه بقوته وحرارته، يحيلنا إلى عصر الصحابة رضوان الله عليهم، وينبئنا أن حفظة القرآن كانوا قِلَّة، مقارنةً بأعداد المؤمنين، لكن الإيمان كان في أعلى درجاته، بل إنّ حافظ القرآن كان يستشعر ثقل هذه الأمانة ويدرك عظمة المسؤولية الملقاة على عاتقه، فيجتهد في أن يرتقي بقدر الإمكان إلى آفاق كتاب الله حتى لا يخلّ به، ويروي لنا قصة سالم مولى حذيفة في حروب الرّدّة وهو يحرص على أن لا ينال المسلمين مكروه من الثّغر الذي يقف عليه ويقول: «بئس حاملُ القرآن أنا إن أوتيتُم من قِبَلي»[(١)].

وهو ينعى على المسلمين اليوم غفلتهم عن سيرة الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم، وكيف ربطوا بين الإيمان والقوة، في إشارة لافتة إلى ما بينهما من علاقة قوية تفضي في النهاية إلى إنشاء الحضارة الإنسانية العادلة: «كم يغيظني أن يُكَلَّف الأنبياء بصناعات الحديد، وأن يُطَالَبوا بتجويد آلات الحرب وإتقانها، وأن يتعلم الصالحون الرمي وإصابة الهدف، وأن يكونوا خبراء ببناء الحصون وتشييد

(١) كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، مرجع سابق، ص٣٣.

الاستحكامات العسكرية... بينما صالحونا لا يدرون عن ذلك شيئًا»[١]، ثم يستطرد قائلًا: «أكان داوود يعبث عندما قيل له: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ [سبأ: ١١]؟! أكان ذو القرنين يعبث عندما أوقد الأفران، وصهر المعادن، وأقام خطًّا من الحصون المنيعة؟!... مَن الذي ينسج السرابيل التي تقي الحرّ والسرابيل التي تقي البرد؟ مَن الذي حوَّل جلود الأنعام إلى بيوت وحقائب تصلح للسفر والإقامة؟ مَن الذي شاد المصانع الكبيرة لنسج الأصواف والأوبار والأشعار ونقلها بالبواخر الضخمة إلى شتى الأقطار؟ إنني دَهِشٌ لأن آيات القرآن لا تجد من يعيها»[٢]. إن كل مظاهر الحضارة التي نراها اليوم مبثوثة في القرآن الكريم في صورة إشارات قوية للمؤمن ليأخذ بها فيكون قويًّا في الحياة بإيمانه؛ لأن الإيمان: «كما يُفْهَمُ من القرآن: قدرةٌ على الحياة في جميع دروبها، قدرة علمية ومادية يصحبها تطويع كلّ شيء لإرضاء الله وابتغاء وجهه»[٣].

لم يستطع الغزالي أن يعطي لهذا البُعد امتداده الحضاري الحقيقي، وأن يربط بين البعد الإيماني وبناء الحضارة، مثلما فعل مالك بن نبي عندما أكد أن الفكرة الدينية هي التي تولِّد التوتر الإيماني الذي يدفع الفرد إلى الإنجاز الحضاري ويعطيه قوة الدفع لصنع التاريخ؛ فالفكرة الدينية متمثلة في ذلك التصور الذي

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٦١.

يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود والكون هي أساس كلّ الجهود الحضارية التي يبذلها لإعمار الأرض، وأساس كلّ التغيرات الإنسانية الكبرى لكونها القاعدة الحقيقية للبناء الفكري: «فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجًا... فكأنما قُدِّر للإنسان ألَّا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية»[(١)].

٢- البعد العملي:

إنّ المقصد الأكبر من نزول القرآن الكريم أن يتحقق عمليًّا في حياة الناس، وأن تنتشر هداياته لتشمل كلّ المجالات الحيوية للفرد والمجتمع، وأن تكتسب آياته بُعْدَها العملي الذي يعدّ علامة فارقة في التعامل معه. ومن أبرز أبعاد الكشف عن المقاصد استلهام وسائل التطبيق وأساليب الممارسة: «لا بد من التدبر... فإنْ تدبرنا الآيات نقلناها إلى حقول الممارسة على الأقل، أو إلى ميادين السلوك، لنعرف كيف نُعْمِل هذه الآيات فيما نعاني منه وفيما نواجهه»[(٢)].

والغزالي يعترف أنّ الجانب العملي في علاقة الأمة بالقرآن قد ضمر ضمورًا شديدًا ولم يبقَ منه إلا أوهام وخيالات: «إنّ الخلل العقلي في فهم القرآن فهمًا

(١) شروط النهضة. ابن نبي، مالك. ترجمة: عبد الصبور شاهين. بيروت: دار الفكر. د.ت. ص٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٤.

عمليًّا كما توحي به الطبيعة السهلة التي لا تكلّف فيها بين الناس، فقدناه من مدة طويلة»[١]، وأن ذلك قد انعكس سلبًا على مردودها الحضاري الذي نزل إلى أدنى مستوياته: «وإذا كان هناك من لا يزالون يقرؤون القرآن قراءة ذات فهم موضعي محدود للنصّ -وليس موضوعيًّا- دون أن يُعْمِلوا هذا النصّ فيما نزل من أجله... فمعنى هذا أننا نريق الدواء على الأرض»[٢].

وهو يأمل أن يكون الكشف عن المقاصد القرآنية مدخلًا لترميم هذه العلاقة بين المسلمين وكتابهم؛ لأن ذلك سيجعلهم يوقنون أن: «الفكر المأخوذ من القرآن فكر علمي وعملي»[٣]، وأنّ هذه الميزة فيه هي التي أهَّلته لأن ينقل الناس من ميدان الجدل والكلام إلى ميدان العمل والإنجاز الذي أسّس للحضارة الإسلامية، فالجديد الذي جاء به القرآن أنه: «حوَّل الكلام والتوجيه من تجريدات ذهنية نظرية جدلية -كما يفعل الفرس واليونان والرومان- إلى منطق ملاحظة واستقراء، ومنطق وعي الكون واحترامه، والتعرف على سننه ومشروعية التعامل معه لعمارة الأرض وبناء الحضارة»[٤].

(١) كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، مرجع سابق. ص٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٨.

وعلى الرغم من تأكيد الغزالي على البُعد العملي للمقاصد القرآنية إلا أن الجوانب الإجرائية عنده ليست واضحة تمامًا، ولم تأخذ منه الاهتمام الكافي الذي أخذه الجانب النظري فيها، حيث اكتفى فيها بوصف الداء وضرب الأمثال، وهذا راجع في نظرنا إلى غياب مشروع مجتمعي واضح المعالم يستطيع المفكرون والمصلحون أن يُدرِجوا إسهاماتهم الفكرية فيه ويحولوها إلى برامج عملية.

٣- البعد العمراني؛

إنّ هذه الرؤية القرآنية الشاملة بمقاصدها الكلية وأبعادها الواسعة تقتضي ارتقاء الأمة إلى مقام العمران البشري ومن ثمَّ الشهود الحضاري؛ فهذا الكون الذي خلقه الله تعالى وسخره للإنسان، ينتظر منه أن يعمره ويبني فيه الحضارة، فهو -من مبدأ خلقه- خليفة الله في أرضه. يقول ابن خلدون: «هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلَّا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعًا لهذا العلم»[(١)].

وكما جعل الله الإيمان جزءًا أصيلًا من الكيان البشري، كذلك كان العمران جزءًا أساسيًّا من تكوين الإنسان الفطري، فقد ربط الله بينه وبين حاجات

(١) المقدمة. ابن خلدون، عبد الرحمن. بيروت: دار القلم، ط ٥، ١٩٨٤م، ص٤٣.

الإنسان الأساسية ربطًا عميقًا يجعله مدفوعًا إلى الإعمار دفعًا؛ لأنه ليس بمقدوره أن يتوقف عن السعي في مناكب الأرض لارتباط هذا السعي بوجوده.

وعلى هذا الأساس، يرى الغزالي أن الإنسان المسلم قد أخلّ بهذا الواجب إخلالًا فظيعًا، وأنه تنازل عن مهمته الأساسية في بناء الحضارة، وركَن إلى السلبية والسكون، ورضي أن يبقى على هامش الحياة، والعالم يمور من حوله في حركة دائمة وسريعة، وبدَل أن يسخِّر الكون سخَّره الآخرون لأغراضهم وقتلوا فيه كلّ إرادة حيّة: «إنّ الأوروبيين والأمريكيين كانوا أقرب إلى الفطرة الصحيحة عندما تركوا لعقولهم العنان تبحث في الكون وتفيد من كنوزه، وما أودع الله فيه من قوى... وكنا نحن أبعد عن الفطرة -التي هي لباب ديننا- عندما فتنَتْنا فلسفات سخيفة لا خير فيها، وعندما استمعنا إلى بعض المتدينين الفاشلين في ميادين الفكر والإنتاج والسلوك؛ فأسَأْنا إلى كتابنا ولم نحقق غاياته الكبرى»[(١)].

٤- البعد السنني:

خصص الغزالي المحور الخامس من كتابه للقصص القرآني الذي يعدُّ في نظره مدرسة كبيرة تزخر بسنن الله في الأنفس والآفاق، حيث يختزن تاريخُ الأمم

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. ص٦١.

الماضية والحضارات البائدة دروسًا بليغة في النهوض والسقوط[١] تشكّل بمجموعها منظومة من السنن الإلهية الثابتة التي تسري على البشرية منذ الأزل إلى أن تقوم الساعة، وتتكرر نتائجها كلما تكررت مقدماتها. كما توقف عند موضوع السنن طويلًا في كثير من كتبه؛ لأنه كان يعتقد أنها: «لابد أن تأخذ مكانها الصحيح من عقلنا، ولا بد أن نحترمها»[٢].

واهتمام الغزالي بهذه السنن لافت للنظر؛ لإدراكه لخطورتها البالغة في تصحيح أوضاع الأمة التي تسير جميعًا في اتجاه الاصطدام بها مما يزيد في معاناتها، ويعمِّق مأساتها الحضارية؛ إذ لا يمكن تحقيق العمران البشري إلا بالوعي العميق بهذه السنن وتسخيرها في الإنجاز الحضاري: «المشكلة أن العقل المسلم توقف عن النمو في هذه المجالات -لعدّة أسباب- مع أن موضوع القرآن هو الإنسان، ومحلّ آيات الله هو الكون، ولا بد للإنسان من التدبّر في القرآن، والتعرّف على سنن الكون وقوانينه التي لا يتحقق بدون

(١) ينظر: (أزمة التخلف الحضاري في العالم الإسلامي؛ دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي). يوسف، نادية. رسالة ماجستير، جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠٠٦م، ص٤٨.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، مرجع سابق، ص٥١.

إدراكها تعمير الأرض... لكن عصور الانحطاط والتخلّف والتقليد أوقعت المسلمين في عجز الرؤية، وتجزؤ النظرة»[١].

ومن ثمَّ فإن من فوائد هذه المقاصد القرآنية وثمارها كما يؤكد الغزالي أنها تدفع المسلمين إلى التشبّع بهذه الثقافة السننية من أجل التهيئة للإقلاع الحضاري للأمة الإسلامية التي ما فتئت تراوح مكانها منذ قرون، لا فرق في ذلك بين السنن الكونية والاجتماعية: «إنّ الأمة لن تخرج من الشِّبَاك إلا بقوانين مكتوبة عندها في الوحي النازل عليها، يجب أن تدرسه، وبالتالي يجب عليها أن تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرّضت للاضمحلال والانحلال عندما فرّطت في سنن الله الكونية والاجتماعية وظنّت أن المواجهة العسكرية والسياسية العمياء فقط كافية في استئناف النهوض»[٢].

ولا يختلف الغزالي في حديثه عن البُعد السنني للمقاصد القرآنية عن كثير من المفكرين الإسلاميين الذين انحصرت كتاباتهم في التنويه بأهمية السنن، ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا مرحلة الإدراك إلى مرحلة الإنجاز والتسخير التي تبقى

(١) كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، مرجع سابق، ص٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٢- ٥٣.

المحك الحقيقي لها؛ لأن الحس السنني لم يكن ناميًا بالقدر الكافي[١] خلال العصور الإسلامية الزاهرة، وما لبث هذا الجهد القليل أن طغت عليه ظلمات قرون الانحطاط والتخلّف، ولم يَطْفُ إلى السطح إلا مع الصدمة الحضارية الحديثة التي نبهت المفكرين والمصلحين المسلمين إلى أن من أهمّ أسباب سقوطهم إهمالهم النظر في مستجدات الأحداث في ضوء السنن الإلهية، وهو موضوع لا يزال قيد الدراسة ولم يبلغ درجة النضج المطلوب بحيث يتحول إلى مادة معرفية قابلة للتطبيق في الواقع.

(١) ينظر: فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية. العلمي، إدريس. أطروحة دكتوراه في الدراسات القرآنية. جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب، ٢٠٠٣م.

الخاتمة ونتائج البحث:

ونخلص في خاتمة هذا البحث إلى أن الشيخ محمد الغزالي -في إطار اهتمامه بعلاقة المسلمين بالقرآن الكريم، وسعيًا منه لتصحيح هذه العلاقة وإعادتها إلى وضعها الطبيعي- قد اجتهد في رصد خمسة محاور وجد أنها تتضمن -في مجموعها- المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وهي: توحيد الألوهية الذي يؤدي إلى تحرير عقل الإنسان وطاقاته، النظر في الكون لاكتشاف أسراره وتسخير ثرواته لصالح البشرية، فقه القصص القرآني واستنباط السنن الحضارية والاجتماعية منه، ومعرفة الكيفية التي تتحكم بها هذه السنن في قيام الحضارات وسقوطها، وفي حركة المجتمعات الإنسانية في صعودها ونزولها، وعقيدة البعث والجزاء التي تهذّب النفوس وترتفع بها عن حمأة الشهوات ومراتع الرذائل، وتبعث في الإنسان روح التضحية والإيثار وفعل الخير رجاء الجزاء الأخروي، والتربية والتشريع اللذان يسيران جنبًا إلى جنبٍ في خطَّيْن متوازيين، بحيث تحقّق التربية صفاء النفوس ورقيَّ الأخلاق، وتحقق الشريعة الالتزام بأوامر الله في الاستقامة على منهجه في توجيه الناس إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

وهو يهدف من وراء الكشف عن هذه المقاصد إلى تجلية أبعادها وامتداداتها في حياة الناس لتفعيل الإرادة في نفوسهم، وتحويل القرآن إلى سلوك عملي

واقعي ينقل الأمة من حالة السلبية والجمود إلى حالة النهوض والشهود من خلال البُعد الإيماني، والبعد العملي، والبعد العمراني، والبعد السنني.

وفيما يلي سرد لجملة النتائج التي توصّلنا إليها:

١- أن القرآن الكريم -بشهادة التاريخ- هو المصدر الأساس الذي انبثقت عنه الحضارة الإسلامية بكلّ علومها ومعارفها؛ إذ كان هو النبع الرئيس الذي نهل منه المسلمون فدفعهم دفعًا قويًّا إلى النبوغ في العلم وإنتاج المعرفة في أرقَى مظاهرها.

٢- أنّ علاقة المسلمين بكتاب ربهم قد أصابها الوهن على مرّ العصور، وشابها الغبش والتشويش، وداخلتها الخرافات والبدع ففقدت ألَقَها، وخفت إشعاعها الذي كان يضيء جنبات النفس المسلمة، وأثمرت هذه العلاقة الواهية مجتمعات سلبية تواكلية، قد نهشها الجهل وأرداها التخلف في وادٍ سحيق.

٣- أنّ الغزالي قد أدرك أنّ الخلل الرئيس في تقهقر المسلمين هو انقطاع الصلة بينهم وبين تعاليم كتابهم التي تنبض بالحياة، وتتفجر حركة وتشعُّ إيجابية وإقبالًا على الحياة.

٤- أنه يعتقد أن معاني القرآن وكلياته قد اجتمعت في خمسة محاور هي: الله الواحد، الكون الدال على خالقه، القصص القرآني، البعث والجزاء، التربية والتشريع.

٥- أنّ لهذه المقاصد أو المحاور أبعادًا وامتدادات تهدف إلى نقل المسلمين من مرحلة الوعي بها إلى مرحلة الاستهداء والتفعيل بتحويلها إلى برامج عملية في نطاق مشروع متكامل يهيّئ الأمة لنهضة مقبلة على أسس متينة.

٦- أنّ من أهم هذه الأبعاد: البعد الإيماني، والبعد العملي، والبعد العمراني، والبعد السنني. وهي تتداخل بعضها مع بعض، وتتشابك لتكوّن في الأخير فقهًا متميزًا يستضيء بالقرآن ومقاصده في كلّ شؤونه.

قائمة المصادر والمراجع

١- مقدمات العلوم والمناهج، محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل. الجندي، أنور. دار الأنصار. القاهرة. ط١. ١٩٧٩م.

٢- مع القرآن دراسات ونظرات. جرار، مأمون فريز. عمَّان: دار المأمون للنشر والتوزيع. ط١. ٢٠١٤م.

٣- المقدمة. ابن خلدون، عبد الرحمن. بيروت: دار القلم، ط٥، ١٩٨٤م.

٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. عبد الباقي، محمد فؤاد. بيروت. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥- نحو تفعيل مقاصد الشريعة. عطية، جمال الدين. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. دمشق: دار الفكر. ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٦- تفسير التحرير والتنوير. ابن عاشور، محمد الطاهر. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٤م.

٧- فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية. العلمي، إدريس. أطروحة دكتوراه في الدراسات القرآنية. جامعة محمد الأول. وجدة. المغرب. ٢٠٠٣م.

٨- نظرات في القرآن. الغزالي، محمد. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط٦. يوليو ٢٠٠٥م.

٩- المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الشروق. ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٠- كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، محمد. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٦، ٢٠٠٥م.

١١- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، القرضاوي. يوسف. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٠م.

١٢- منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن. ملال، يونس. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، ٢٠١٠م.

١٣- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. النشار، علي سامي. دار المعارف بمصر. القاهرة. ط٥. ١٩٧١م.

١٤- شروط النهضة. ابن نبي، مالك. ترجمة: عبد الصبور شاهين. بيروت: دار الفكر. د.ت.

١٥- أزمة التخلف الحضاري في العالم الإسلامي (دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي)، يوسف، نادية. رسالة ماجستير، جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠٠٦م.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٢
أولًا: المقاصد القرآنية عند الغزالي؛ قراءة في الأنواع والمضامين..... ٧
المقصد الأول ٨
المقصد الثاني..... ١٢
المقصد الثالث ١٥
المقصد الرابـع ١٨
المقصد الخامس ٢١
ثانيًا: الأبعاد الحضارية للمقاصد القرآنية عند الغزالي ٢٦
البعد الإيماني ٢٧
البعد العملي..... ٣٠
البعد العمراني ٣٢
البعد السنني ٣٤
الخاتمة ونتائج البحث ٣٧
قائمة المصادر والمراجع ٤٠